

الحجاج في المناظرة السياسية

من خلال مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

Argumentation in the political debate

Through the debate of Omar bin Abdul Aziz to the Kharijites

الأستاذ الدكتور: عبد الجليل العشراري. كلية اللغة العربية.

جامعة القاضي عياض. مراكش. المغرب

E-mail : jaliloo@hotmail.com

تاريخ النشر: 2020-12-10	تاريخ القبول: 2020-08-28	تاريخ الاستلام: 2020-08-18
-------------------------	--------------------------	----------------------------

ملخص المقال

تزخر الثقافة العربية بأجناس أدبية تعكس مظهرًا حضاريًا راقيا للتواصل الإنساني، من ذلك الشعر والخطابة والرسالة والمناظرة، ولكل جنس من هذه الأجناس آلياته التي يشتغل بها للكشف عن الحقائق ودفع الشبهات، إلا أن الصنف الأخير يعد أبلغها في إظهار الكيفية التي تشتغل بها آليات العرض والاعتراض معا وفي آن. وقد فرض أسلوب الدعوة الإسلامية التوسل بالمناظرة لتدبير الخلاف بين فريقين، وبخاصة إذا تعلق الأمر بفريقين يدين كل منهما بعقيدة تخالف عقيدة الفريق الآخر، والعقيدة دينية أو سياسية أهم ما يغار عليه الإنسان ويدافع عنه. ومن الخلافات السياسية التي شهدتها التاريخ الإسلامي ما شهدته أمر العهد لعمر بن عبد العزيز بين أفراد بيت الخلافة، ما حدا بالخليفة العادل لدعوة الخوارج للتناظر، فجاءت مناظرته لهم في سياق النزاع حول الشرعية، شرعية إمامة المسلمين. والدراسة هذه تبحث في آليات المناظرة وتكشف عن عناصر الحجاج فيها محتوى وأسلوبا وبناء.

الكلمات المفتاحية: المناظرة. الحجاج. عمر بن عبد العزيز. الخوارج. السياسة. الخلافAbstract

Arab culture is replete with literary genres that reflect a sophisticated aspect of human communication, including poetry, rhetoric, letter and debate, and each of these genres has its own mechanisms to uncover facts and push suspicions, but the last type is the most eloquent in showing how it works. It has two display and objection mechanisms together and at the same time.

And the method of the Islamic call has imposed the begging of debate to manage the dispute between two parties, especially if it concerns two parties, each of which owes a belief that contradicts the belief of the other party, and the religious or political belief is the most important thing that a person can be jealous of and defend. Among the political disagreements in Islamic history was what the covenant order for Omar bin Abdul Aziz witnessed among the members of the Caliphate House, which prompted the just Caliph to call the Kharijites to debate, so his debate with them came in the context of the dispute over the legitimacy of the Muslim imamate.

This study examines the mechanisms of debate and reveals the elements of the argumentation with content, style and structure.

Key words: The debate - Argumentation- Omar bin Abdul Aziz - Kharijites - politics – disagreement

مقدمة :

تعددت و تنوعت أنماط التعبير و التواصل في التراث العربي و الإسلامي ، و لكل واحد منها مقوماته و آلياته ، ومن تلك التي تمتع من مبحث الحجاج ، و تتخذة مهيعا لها جنس " المناظرة " وهي " لون من الجدل بالتي هي أحسن بين فريقين وصولا إلى الحق أو إلى الصواب ، يحاول فيها كل فريق إثبات وجهة نظره مع تخل مسبق عن التحيز ، و رغبة صادقة في الوصول " (جريدة، 1991، صفحة 59)، و تقوم على المقابلة و المفاعلة الموجهة على حد تعبير الدكتور طه عبد الرحمان: " كل خطاب استدلاي يقوم على المقابلة و المفاعلة الموجهة يسمى مناظرة " (عبدالرحمان، 2007، صفحة 66) ، و بناء على هذا التحديد فإن المناظر من كان عارضا أو معترضا و كان لعرضه أو اعتراضه أثر هادف و مشروع في تصديقات غيره عارضا كان أو معترضا (عبدالرحمان، 2007، صفحة 67) .

إن اعتماد المناظرة المنهج الجدلي يجعلها تشمل كل مناحي الفكر الإسلامي، و إن تداول المسلمين الأغلب لهذا المنهج و التزامهم به أكثر من غيره في تحصيل المعرفة و تبليغها ليدل عليه غنى معجم هذا النمط الخطابي (المناظرة) و نذكر من هذا المعجم على سبيل المثال لا الحصر المفردات التالية : " المحاور و المخاطبة و المجادلة و المحاججة و المناقشة و المنازعة و المذاكرة و المباحثة و المجالسة و المفاوضة و المراجعة و المطارحة و المساجلة " (عبدالرحمان، 2007، صفحة 69) و غيرها كثير .

و من المناظرات العربية الإسلامية تلك التي كانت " حوارا " حول قضية الخلافة و شؤونها ، و في هذا المقام سنعرض لتلك التي جرت بين عمر بن عبد العزيز و الخوارج . و سأتناولها بالتحليل في ثلاثة مستويات : البراهين – الأسلوب – الترتيب ، يسبق ذلك تطرق لما يحيط و يؤطر المناظرة .

1. المناظرة السياسية : المفهوم والاستراتيجيات

1. المناظرة والحجاج

تحمل المناظرة معنى المباحثة و المباراة في النظر و استحضار ما يراه كل طرف ببصيرته (الزبيدي، 1974، صفحة 254) في شأن ما، فهي مناسبة لعرض وجهات نظر متباينة حول مسألة ما.

و تشير المناظرة السياسية في الاصطلاح إلى لقاء يقوم على خطابين متباينين يتبادلان الأدوار الكلامية، وينتهي كل منهما إلى أحد الطرفين المتناظرين، وينمو النص، ويتوالد بفعل تبادل الأدوار الكلامية بين الطرفين حسب قانون "الفعل وردّ الفعل". فالمناظرة مقام يسمح بالتفاعل بين الذوات، ويفتح المجال واسعاً لتبادل الأفكار ومقارعة الحجّة بالحجّة، فيجري إنشاء الخطاب بغرض الخصومة (الجاحظ، 1998، صفحة 8) والمنازعة ومناقشة الخصوم (الجاحظ، 1998، صفحة 15، 95)، ويُفترض في المتكلم أن يعرف سياسة البلاغة (الجاحظ، 1998، صفحة 197)، وأن يعرف كيف يضطرّ الخصوم بالحجّة (الجاحظ، 1998، صفحة 91)، ويُطبّقهم بها (الجاحظ، 1998، صفحة 197)، والمراد من ذلك أن يبلغ مبلغا عظيما من التأثير في الناس، فتكون الأعناق إليه أميل، والنّفوس إليه أسرع، والعقول عنه أفهم (الجاحظ، 1998، صفحة 7)، والعلوّ على الخصم (الجاحظ، 1998، صفحة 176) أضمن.

من هنا كانت المناظرة فعلاً تواصلياً وحدثاً تفاعلياً وخطاباً بيانياً حجاجياً، تُستدعى بمقتضاه الحجة لتدلّ على صحة الدّعى (الجرجاني 1992، 482). فضاء للاختلاف بين طرفين فأكثر حول مسائل تتصل بسياسة الناس وتدير شؤونهم، وترتيب أحوالهم، في شتى المجالات، حاضراً وماضياً ومستقبلاً، ويعتمد المتناظران إلى رُفد الآراء والمواقف بالحجج قصد البرهنة على صحة أطروحة ودحض أطروحة أخرى.

ومن ثمّ، فالعلاقة بين "فنّ" التناظر و"فنّ" الحاجة علاقة ضرورية منطقية، حتّى إنّ كلّ مناظرة هي حجاج واستدلال بالضرورة.

2. استراتيجيات المناظرة السياسية

أ- تنوع الحجج

يلجأ طرفا المناظرة إلى تنوع حججها ضماناً لمساحة أكبر تتيح لكل منهما مجالاً للضغط على الخصم من جهة و كسب ثقة جمهور المتابعين من جهة أخرى. وقد تكون هذه الحجج عقلية أو عقلية، ذاتية أو موضوعية.

ب- تعديد الأسئلة

السؤال مكون محوري و مركزي في المناظرة، يتخذ مقاصد عدة، منها: محاصرة الخصم و خلخلة توازنه و مباغتته، لذا فصناعة السؤال تعد ركناً مهماً من أركان صناعة الحجاج في المناظرة السياسية.

ت- الاستدراج بالسؤال

لا نتحدث هنا حتماً عن السؤال الاستخباري الذي ينجز بغاية الحصول على معلومة ما أو التأكد من صحتها، وإنما نندرج ضمن ما يمكن تسميته بالسؤال المحجاج الذي يهدف إلى إخراج الخصم وإرباكه وإقامة الحجة عليه.

ث- تبئير الخطاب

نعني بذلك في المناظرة السياسية توجيه الحوار نحو موضوع معين، و التركيز الجدل حول قضية مخصصة.

ج- لغة الخطاب

و تقوم على اصطفاء العبارة، لأنها فعل بياني يتوسل الإخراج البلاغي قصد لفت انتباه الناس و إيقاع التأثير في المتلقي.

II. تأطير النص:

انعقدت المناظرة – قيد التحليل – بدعوة من الخليفة عمر بن عبد العزيز، و كان ذلك على إثر إعلان " الخوارج – في منطقة الجزيرة الفراتية – ثورتهم ضد الدولة الأموية بقيادة (بسطام اليشكري) المعروف باسم (شوذب). كتب عمر إلى عامله في العراق " ألا يحركهم إلا أن يفسكوا دماً أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فخل بينهم و بين ذلك، و انظروا رجلاً صليبا، حازماً فوجهه إليه، و وجهه جندا، و أوصه بما أمرتك به " (خليل، 1971، صفحة 95)

إن عمر حقاً، بهذه الكلمات و العبارات، ليعبر عن روح الخلافة الراشدة. وقد كان ذلك في السنة المئة للهجرة. جرت المناظرة بدعوة صريحة من عمر بن عبد العزيز لشوذب و أتباعه، و هي دعوة للسلم و سؤال عن سبب الخروج، قال عمر: "... إنه بلغني أنك خرجت غضباً لله و لرسوله، و لست بأولى بذلك مني، فهل علم إلي أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، و إن كان في يدك نظرنا في أمرك " (المناظرة).

و كان هذا الكتاب بمثابة غصن الزيتون الذي ينتظره شوذب ، فأمر بوقف تحركات قواته ، و كتب إلى عمر : " قد أنصفت ، و قد بعثت إليك رجلين يدارسانك و يناظرانك " (المناظرة)

III. روايات المناظرة

تعددت روايات المناظرة قيد الدرس ، فقد جاءت في "تاريخ المسعودي" و "سيرة عمر بن عبد العزيز" و "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و كلها روايات لا تختلف من حيث المضمون العام و الخطوات المنهجية لسير المناظرة – أي أطوارها – و إنما تتمايز فيما بينها من حيث بعض التفصيلات و الدقائق التي صاحبت المناظرة عموماً .

و في تحليلي هذا سأعتمد نص المناظرة الوارد في كتاب " الكامل في التاريخ " للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين. (الأثير، 1983، صفحة 155، 156، 157)

IV. شروط المناظرة العامة :

لما كان غرض المناظرة إظهار الصواب ، فقد حددت لها شروط عامة هي الآتية : (عبدالرحمان، 2007، صفحة 74)

1 - لابد لها من جانبين :

أ- عمر بن عبد العزيز (61-101هـ / 681 – 720 م)

هو " عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ، أبو حفص الخليفة الصالح ، و الملك العادل ، و ربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم .وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام . ولد و نشأ بالمدينة ، و ولي إمارتها بالوليد ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام . و ولي الخلافة بعهد من سليمان سنة 99هـ . فبوع في مسجد دمشق ، و سكن الناس في أيامه ، فمنع سب علي بن أبي طالب (و كان من تقدمه من الأمويين يسبون على المنابر). " اتسمت فترة حكمه بحثه عماله على رد المظالم إلى أهلها " (الحكم، 1967، صفحة 91) ولم تطل مدته ، قيل : دس له السم و هو بدير سمعان من أرض المعرة . رثاه الشريف الرضي بقصيدة مطلعها :

يا ابن عبد العزيز ، لو بكت العين * فتى من بني أمية ليكيترك " (الزركلي، 1989، صفحة 50)

ب- مندوبا شوذب :

هما عاصم و اليشكري ، الأول مولى لبني شيبان حبشي و هو أسد حجة و لسانا

2 - لابد لها من دعوى:

قبل استعراض دعوى المناظرة ، نشير إلى أن هناك مقدمة لها هي بمثابة جس نبض من الخارجيين لعمر ، و يتمثل ذلك في سؤالهم " أخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس و مشورة أم ابتزتم أمرهم " ، هذا رغم إيمانهم و يقينهم بل و اعترافهم بسيرة عمر المتسمة بتجري العدل و الإحسان . قال عاصم : " ما نقمنا سيرتك إنك لتتجرى العدل و الإحسان ... " و دعوى المناظرة الأساس تطرح بعد ذلك ، و تتلخص في فحوى قول مندوبي شوذب " بيننا و بينك أمر واحد (...) رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك و سميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنههم و أبرأ منهم "

و يبقى أن نشير إلى أن مرحلة حرجة تبلغها المناظرة وتتعلق بمسألة الخلافة بعد عمر ، فالخوارج يرفضون يزيدا في ولاية العهد ، لأنهم يدركون عدم أهليته لهذا المنصب ، و يؤكدون ، مقابل ذلك ، و بالاستناد إلى القرآن على قيام الدولة الإسلامية على مبدأ الشورى و الانتخاب الحر . وهذا ما وضع عمر بين خيارين أحلاهما مر ؛ فقال في هذا الصدد : " أهلكني أمر يزيد و خصمت فيه ، فأستغفر الله " وما لبث بعد ذلك إلا ثلاثا حتى مرض و مات .

• السؤال الجدلي و الإشكالي :

" من منطلق أن الخلاف هو منجم السؤال " (الريفي ، صفحة 122) تتمحور المناظرة في عمومها حول سؤال جدلي إشكالي يقوم أساسا على ضرورة لعن عمر لأهل بيته و التبرئة منهم لأنه خالفهم بإتباعه الهدى و تركه الضلالة ، و بذلك تكون صياغة السؤال على الشكل التالي:

هل تبرأ يا عمر من أعمال أهل بيتك و تلعنهم ؟ أو بصيغة أخرى : كيف يكون السلوك إزاء أهل الذنوب ؟ و هل لعنهم فريضة لابد منها ؟

3- لابد لها من مأل يكون "بعجز" أحد الجانبين :

جرت المناظرة في جو من النقاش الودي الهادئ ، و بعد ما انتهج عمر ، بما عرف عنه من ذهن متوقد و فقه عميق ، أسلوب رد الحجة بالحجة ، سرعان ما اقتنع أحد المندوبين المتناظرين بأن عمر على صواب ، وهو عاصم إذ قال للخليفة : " أشهد أنك على حق " و يلتفت عمر إلى الآخر : " ما تقول أنت ؟ " فيجيب : " ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت و أعلم حجتهم " . أقام عاصم عند عمر فأمر له بالعطاء ولحق الشيباني بقومه فقتل معهم .

حجاجة المناظرة :

1- البراهين والأدلة :

و يطلق عليها التصديقات ، و تشمل كل المواد التي يتذرع بها لأجل حصول الإقناع ، وقد قسمها أرسطو إلى قسمين كبيرين هما :

- براهين صناعية .

- براهين غير صناعية

فأما الأولى " فما أمكن إعداده و تثبيته على ما ينبغي بالحيلة و بأنفسنا " (أرسطو ، 1959 ، صفحة 9) ، و أما الثانية " و أعني [اللاتي] بغير صناعة [فليست] تكون بحيلة منا لكن بـِ أمور متقدمة ، كمثل الشهود و العذاب و الكتب و الصكاك و ما أشبه ذلك " (أرسطو ، 1959 ، صفحة 9)

يتبين إذن من تمييز أرسطو أن الحجج غير الصناعية هي الجاهزة ولا يسعنا فيها إلا التبني إذا اتسمت بمناسبة الدعوى ، بخلاف الصناعية التي تستمد قوتها من مدى قدرة المحاجج على إعداد و بناء قوله الاستدلالي .

أ- الحجة الجاهزة في المناظرة :

* الشاهد القرآني

بمجرد طرح الخارجيين دعوى التناظر ، و بعد أن عمد عمر بن عبد العزيز إلى خلق جو الثقة المتبادلة و مد حبل الود مع مناظره منذ البداية ، سخر الخليفة شاهدين قرآنيين متتاليين (وهما بمثابة حجتين بالسلطة) الأول قوله تعالى " فمن تبعني

فإنه مني و من عصاني فإنك غفور رحيم " (إبراهيم، 36) (تفسيرها : أي فمن أطاعني و تبعني على التوحيد فإنه من أهل ديني ، و من خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيم بالعباد) (الصابوني، 1998، صفحة 92) و الثاني قوله عز و جل : " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " (الأنعام، 90) ففي الأول دليل على أن لعن أهل الذنوب غير وارد ، و الثاني تأكيد على أن اقتفاء أثر السلف الهاديين المهديين أمر لا بد منه.

* المثل :

" المثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها ، و يراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها " (العمري، 1986، الصفحات 68-70). و انتبه دارسوا النص القرآني و البلاغيون العرب بالممارسة و الثقافة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع . فالمثل في تقدير الزركشي : " يستعمل لإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة ، و ما لم تجربه العادة ، و ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة " (الزركشي، 1957، صفحة 486) نرصد في نص المناظرة غنى في هذا النطاق ، يزيكه الطابع العربي الأصيل لهذه الأمثال ، فجلبها تاريخي إن لم نقل كلها ، و ورودها في هذا السياق كان له الوقع و الأثر في دفع دعوى الخصم و الاعتراض عليها ، و من ثم تقديم الدليل و الحجة الواضحة ، ذلك كله مسيج بالأسلوب الحوارية الاستدراجي . و نمثل لذلك بقول عمر " أخبراني عن أبي بكر و عمر أليسا على حق ؟ " قال : " بلى " قال : " أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم و سبي الذراري و أخذ الأموال ؟ " قال : " بلى " قال : " أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائريهم بفدية ؟ " قال : " نعم " قال : " فهل برئ عمر من أبي بكر ؟ " قال : " لا " قال : " أفتبرؤون أنتم من واحد منهما ؟ " قال : " لا " .

ب- الحجة الصناعية في المناظرة :

أفاض أرسطو في الحديث عنها ، و قسمها إلى ثلاثة أقسام :

أ- قسم له علاقة بالمتكلم و هو أخلاقه و سمته (الإيتوس).

ب- قسم له علاقة بالمتلقي و نوازه (الباتوس) .

ت- القسم الثالث مرتبط باللغة المعبر بها (اللوغوس) وهو " الحجج المستندة إلى الخطاب نفسه " (الولي، 1998، صفحة

(124)

أما القسم الأول ، فلا تخفى علينا شخصية عمر بن عبد العزيز ، و قد أفضنا الحديث عنها في محور سابق ، فما يكون منا الآن إلا أن نربط ذلك بما بثه الدكتور طه عبد الرحمان في مؤلفاته عن آداب المناظرة و أخلاق المناظر (عبدالرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، 2006، الصفحات 240-241) ، فهو يعد أساس العلاقة التخاطبية " التبليغ " ، و حتى يتم ذلك على المتخاطبين التزام مبدأ التأدب المتفرعة عنه قواعد التخاطب ، و التي يبدو جليا من خلال المناظرة أن عمر بن عبد العزيز قد التزم بها و بمقتضاها وهي : " قاعدة التعفف : أي لا تفرض نفسك على المخاطب " وذلك واضح من خلال عدم تعالي عمر عن محاوريه / مناظريه . ثم قاعدة التشكك و مقتضاها أن تجعل المخاطب يختار بنفسه ، و نمثل لها بقول عمر " فاتركوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق و رغبت عنه فلا طاعة لي عليكم " ، و أخيرا قاعدة التودد و مفادها إظهار الود للمخاطب، و دليل تضمن المناظرة لها قول الخليفة : " قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها " .

أما نوازع المتلقي فمن الواضح أن مراعاتها من طرف الخليفة حظيت باعتباره ، إذ يبدو جليا استحضر هذه النوازع في المناظرة ، و بالتالي استثمارها في خضم عرض و اعتراض عمر بن عبد العزيز .

لقد دأب الخليفة في جل محطات المناظرة على مد حبل الود و الحوار الهادئ متصلا بينه و بين مناظريه خاصة و أنهما خارجيين ؛ و نجد ذلك بينا منذ الوهلة الأولى و حتى قبل بداية التناظر ، قال عمر : " هلم إلي أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس و إن كان الحق في يدك نظرنا في أمرك " و كذا قوله : " قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدينيا " .
هذه الأقوال تبرهن على مراعاة عمر لنوازع و انفعالات مناظريه ، و هو ما يعد دليلا على مصداقية محاورته و سعيه نحو " الحق " و بذلك يكون مدعاة للتصديق .
* القياس المضمر

يقوم القياس المضمر على الرأي و الاحتمالات و اعتقاد الجمهور ، و يعرف " لا بمحتوى مقدماته بل بالطابع الإضماري لتمفصله : إنه قياس ناقص ، قياس مختزل " (بارت، 1994، صفحة 105) ، و يكمن الاختزال في إسقاط إحدى مقدمات القياس .
وقد كان له في طرح عمر بالغ الأثر و يبرز ذلك في خضم عرض الخليفة لحججه للتدليل على أن لعن أهل الذنوب ليس فريضة . و يمكن تأويل هذا القياس المضمر على الشكل التالي :
* المقدمة الكبرى : أهل عمر مذنبون كما أن فرعون مذنب ، لكنهم (أي أهل عمر) مصلون صائمون ، أما هو (فرعون) فلم يكن مصليا ولا صائما .

* المقدمة الصغرى : عمر لم يلعن فرعون .

* النتيجة : أهل عمر أولى بأن لا يلعنوا .

2- الموجبات الحجاجية :

أ- ود و حوار :

من الموجبات التي أغنت الجانب الحجاجي في المناظرة ، و التي وجهتها الوجهة السليمة و جعلت من التناظر فعلا يتسم بالهدوء و التمازج الجاد و الهادف ، قول الخليفة : " قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدينيا و لكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها " فهذه بداية تبعث على نوع من الارتياح لدى الخارجيين ، و تبث فيهم اليقين بأن محاوره / مناظرة عمر يطبعها الطابع الودي المنبني على المقارعة بالحجة و البرهان . كما لا يفوتنا أن نذكر بأن في ذلك إقرارا بالمشترك بين طرفي المناظرة ، ألا وهو السعي إلى كسب الدار الآخرة .

ب- خلافة ووجهة :

ومن الموجبات أيضا قوله : " فاتقوا الله فإنكم جهال " و في ذلك إقرار و تأكيد من عمر على أن الإقناع و وصل إلى أقصاه ، و كأنه ييقن من استحضاره لكل ما من شأنه أن يحدث التسليم عند الخارجيين ، كما في ذلك استحضر عمر لموقعه بوصفه خليفة للمسلمين و رئيسا للدولة .

ت- ألم و حرقة :

نشير أخيرا إلى قول الراوي " فبكى عمر " و في ذلك توجيه دال على ما اختلج عمر في نفسه من حرقة ، بل و حيرة إزاء تولية يزيد من بعده ، و مما يوضح حقيقة هذا الطرح قول عمر : " أهلكني أمر يزيد و خصمت فيه فأستغفر الله " .

٧. الأسلوب:

يأتي الأسلوب في المرتبة الثانية بعد البراهين عند أرسطو ، لأن الأسلوب هو الذي "يتكفل بنقل الأفكار التي سبق وأن عثر عليها في الإيجاد إلى الصياغة اللغوية ، أي التجسيد المادي للأفكار " (الولي، 1998، صفحة 34)، ولا يكفي أن تكون الأدلة مقنعة ما لم تقدم بأسلوب مقنع يحوز مجموعة من العناصر التعبيرية و الفنية و الجمالية .

1- الاستفهام الحواري في المناظرة:

يحتل أسلوب الاستفهام الصدارة ضمن الأساليب الموظفة حجاجيا ، و تختلف معانيه و دلالاته بحسب المقام و مقصدية المحاجج ، و نسجل طغيان هذا النوع الأسلوبي على مناظرتنا قيد التحليل .

و تتبعنا لتجليات هذا الأسلوب في المناظرة و رصدنا لمعانيه البلاغية أفضيا بنا إلى ما يلي:

إن أول سؤال يطالعهنا قول عمر : ما أخرجكما هذا المخرج ، و ما الذي نقمتم ؟ وهو استفهام طلبي الغرض منه معرفة سبب خروج شوذب و أصحابه ، ليأتي جواب أحد الخارجيين بإثبات العدل و الإحسان لعمر و طرح السؤال التالي : أخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس و مشورة أم ابتزتم أمرهم ؟ و هو حقيقة سؤال ليس الغرض منه معرفة الجواب في حد ذاته ، ولكن وراءه رغبة في معرفة صورة الجواب و هيأته ، لأنهم مقتنعون سلفا بسيرة الخليفة و خلقه .

و بعد الانتقال إلى عرض الدعوى ، و اعتراض الخليفة على ذلك ، و في معرض تدليله على منعه يطرح سؤالين بغرض الإنكار ، يقول : "إن قلت إنهم فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟" - "... أفيسمعك ألا تلعن فرعون وهو أختب الخلق ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟".

ليستمر الاستفهام فيما يفرضه الطابع الحوارى للمناظرة ، و هذا يتمشى و شعار عمر بن عبد العزيز الذي يتسم بعدم إشهار السيف و الاحتكام بدل ذلك إلى سلاح المنطق و البرهان ، خاصة و أن الخلاف ليس خلافا بين إيمان و كفر ، ولا صراعا بين دار إسلام و دار حرب.

إن نهج عمر لأسلوب الحوار و توظيف الاستفهام الذي يستهدف استدراج المخاطبين إلى الاقتناع بما يعرض ليعده منهجا حكيما ، و أصلا من أصول المناظرة سعيا إلى إظهار الصواب و تبيان الحق .

و هذا ما وقفنا عليه في هذه المناظرة و من أمثلته :

أخبرني عن أبي بكر و عمر ، أليسا على حق ؟

قالا : بلى

قال : أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم و سبى الذراري و أخذ الأموال ؟

قالا : بلى

قال : أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائهم بفدية ؟

قالا : نعم

إنه حقا أسلوب حضاري حققت المناظرة من خلاله غرضها . و لا تفوتنا هنا الإشارة إلى الأسئلة التي طرحها الإشكري : أرأيت رجلا ولي قوما و أموالهم فعدل فيما ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأموم أترأه أدى الحق الذي يلزمه لله عز و جل أو ترأه قد سلم ؟ ثم الذي يليه : " أفترأه هذا الأمر إلى يزيد من بعدك و أنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ ثم الثالث و الأخير بالنسبة للمندوبين وهو " أفترأه ذلك من صنع من و لاه حقا " وهي أسئلة تضممر نوعا من عدم الرضى عن حال تولية يزيد بعد عمر ، وهو ما أفضى بعمر إلى البكاء ، لأن ذلك إذا تم سيكون غير موافق لمبدأ الشورى الذي يقوم عليه النظام السياسي الإسلامي . وقد تم

توظيف الهمزة في هذه الاستفهامات لأنها تفيد التصديق و التقرير بعدم صحة دعوى ولاية يزيد للعهد ، أو بصفة عامة مسألة الوراثة

2- أسلوب الأمر :

الأمر هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء . و أول أمر ورد في المناظرة جاء دعوة من الخليفة لرأس الخوارج (شوذب) للمناظرة " فہلم إلي أناظرك " و في ذلك استعجال لشوذب في الدخول في حوار معه قصد حل الإشكال المطروح . و نلمس في استعمال مندوبي شوذب لأسلوب الأمر نوعاً من التأدب و اللين ، فهو طلي محض لا على جهة الاستعلاء و مثال ذلك " فاعلنہم و ابراً منہم " و يظهر ذلك جلياً في جواب عمر و رده " قد علمت أنکم لم تخرجوا طلباً للدنیا .. " الذي يتسم بنوع من الود تجاهها و اعتراف بعدم تطاولهما على شخصه .

نسجل أيضاً أن توظيف الأمر من لدن عمر بن عبد العزيز كان لخدمة استفهاماته و التي هي الأخرى كانت خير معين له على بناء خطابه الحجاجي بشكل متدرج و متماسك الأطراف ؛ و نمثل لذلك بقول عمر " أخبراني عن أبي بكر و عمر ، أليسا على حق ؟ و كذا قوله " فأخبرني عن أهل النهروان و هم أسلافکم هل تعلمان أن ... " .

3- أسلوب الشرط :

نكاد نجزم أن أسلوب الشرط من الأساليب التي يثبت حضورها في كل نص حوار من هذا النوع – أي المناظرة - ، و لا يخفى علينا دوره في إغناء الحوار و دفع به نحو الأمام.

و نقف على هذا الضرب من الأسلوب منذ الوهلة الأولى و قبل بداية التناظر الفعلي، أي عند تلاوة كتاب عمر على شوذب الخارجي و دعوته للتناظر ، قال عمر : " فہلم إلي أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس و إن كان في يدك نظرنا في أمرک " و كذا قوله " فاتركوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق و رغبت عنه فلا طاعة لي عليكم " كما نجده عند عرض الدعوى من طرف العارضين " رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك و سميتها مظالم فإن كنت على هدى و هم على الضلالة فاعلنہم و ابراً منہم " .

و مما أدها هذا الأسلوب الشرطي داخل نص المناظرة أنه أضفى / خلق نوعاً من الثقة إن لم نقل المصادقية – إن جاز التعبير – بين طرفي التناظر مما هيأ ظروف و شروط " المحاورة " على حد تعبير طه عبد الرحمان ، و هي حالة تبلغ بالمتحاورين " درجة التفاعل ، فيتم فتح باب الاستدلال على مصراعيه ، يحاج المتحاور لنفسه كما يحاجه غيره " (عبد الرحمان، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، 2007، صفحة 56).

إن جل الأساليب الواردة في نص المناظرة و التي وقفنا على أكثرها حضوراً و بروزاً فيه ، تخدم بشكل أو بآخر المنهج المتبع من لدن طرفي المناظرة و خاصة عمر بن عبد العزيز ، ذلك المنهج المتلخص في سلوك الحوار و الاستدراج بغية الوصول إلى الحقيقة المشتركة .

VI. الترتيب :

يحظى الترتيب في أي شكل من أشكال التعبير و التواصل بأهمية كبرى ، فحسنه يعين على حدوث الفهم و الإفهام ، ومن تم الإقناع .

و المناظرة كغيرها من أنماط التواصل ، و باعتبارها منبئية على عنصر الحجاج يجب أن تخضع للترتيب سواء على المستوى الموضوعاتي ، أو المستوى الحجي .

و ساعمد في هذا النطاق إلى دراسة الترتيب باعتماد المستويين معا :

● الموضوعاتي : يمكن تقسيم موضوعات المناظرة تبعاً للحظاتها إلى :

- أ- مسألة تولية عمر خليفة للمسلمين : "أعن رضى من الناس و مشورة أم ابتزاز [لهم]"
 ب- عرض دعوى التناظر الأساس و تتمثل في دعوة الخارجيين إلى لعن عمر لأهل بيته لمخالفته لهم.
 ت- استعراض مختلف الحجج و البراهين فنية و غير فنية باعتماد أسلوب الحوار و الاستدراج .
 ث- قفز على دعوى التناظر للانتقال إلى محور آخر وهو قضية تولية يزيد بعد عمر ، قال الإشكري : رأيت رجلاً ولي قوماً و قد دافع عمر عن ذلك بأنه غير مسؤول عن هذا الأمر ، قال عمر : " إنما ولاءه غيري و المسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي " ، وهو الأمر الذي تألم له فبكى .
 ج- اقتناع الخارجيين بطروحات عمر و حججه ، و إقرارهم بعدله و انصافه وما ذلك إلا تأكيد لما هو كامن في دواخلهم منذ بداية التناظر.

- الحجي : اعتمد عمر في ترتيبه لحججه على سلم حجاجي ينطلق من العام إلى الخاص و من الشاهد القرآني الذي لا جدال فيه و المشترك بينه وبين مناظريه إلى المثل و القياس ، و كل ذلك مسيح بأسلوب حوارى استدراجي يعتمد خطة سؤال / جواب . فالترتيب الحجي إذن له ما له من الأهمية فالحجة لا يمكن أن تكون فعالة لمجرد أنها حجة جيدة ، بل ينبغي بالضرورة لكي تكون فعالة حقاً أن تصاغ الصياغة المناسبة ، و في هذه الحالة تتدخل كل الأمور المتعلقة بالترتيب ، و كل خلل في الترتيب يسلب الحجة قوتها مهما كانت بالغة.
 إن إيراد عمر للشاهد بن القرآنيين جعل الخارجيين يديمان الإنصاف له ، وهو ما مكنه من عرض دعواه مدللة بحجج تنبني أساساً على المثل و المثل التاريخي على وجه التحديد .

خاتمة :

صفوة القول ، إن المناظرة مرت في جو من الحوار الهادئ و الجدي ، إنها فعلاً ترقى إلى مستوى " المحاوراة " التي يسعى فيها كل طرف إلى بلوغ الحق ، و ذلك بالتزام مبدأ " التعاون " و التحلي بأخلاقيات التناظر بكل تفاصيلها و تجلياتها ؛ و نكتفي هنا بذكر تلك التي أوردها طه عبد الرحمان (عبد الرحمان، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، 2007، صفحة 75) :

* إمهال المناظر خصمه حتى يستوفي مسأله

* تجنبه الإساءة إلى خصمه بالقول أو الفعل .

* قصده الاشتراك مع خصمه في إظهار الحق و الاعتراف به .

* تجنبه محاوراة من ليس مذهبه إلا المضادة .

و نجزم قطعاً أن هذه الآداب و الأخلاقيات مجسدة في ثنایا المناظرة و ملتزم بها ، كيف لا يكون الأمر كذلك و عمر بن عبد العزيز - الخليفة العادل - طرف فيها .

إن هذه المناظرة تجسيد للنقلة النوعية التي عرفها تدبير الخلاف بين المسلمين في مسألة لم يحسم الصراع فيها إلا السيف ، و بذلك انتقل الصراع من ميدان الاقتتال إلى منهج التحاور و تداول الآراء في مناخ من الحرية التي كفلتها طبيعة الشخص الحاكم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم ، رواية ورش عن نافع عن طريق الأزرق .
2. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج 4 دار الكتاب العربي ط4، بيروت ، 1983
3. *أرسطوطاليس ، الخطابة ، الترجمة العربية القديمة. ت عبد الرحمان بدوي. مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1959.
4. *رولان بارت ، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة عمر أوكان ، إفريقيا الشرق 1994.
5. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ت عبد الحليم الطحاوي، مطبعة الكويت، الكويت 1974.
6. الجاحظ، البيان والتبيين ، ت عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ط7، القاهرة، 1998.
7. الشريف الجرجاني، التعريفات، ت إبراهيم الأنباري، دار اللسان العربي، د ط، بيروت 1992..
8. محمد بن عبد الله بن الحكم ،سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس و أصحابه ،تصحيح و تعليق أحمد عبيد ، دار العلم للملايين ط 5، بيروت ، 1967
9. عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، الدار العلمية ط2، بيروت، 1971 .
10. *علي جريشة ، أدب الحوار و المناظرة ، دار الوفاء للطباعة و النشر، ط2، المنصورة مصر 1991 .
11. *هشام الريفي ، الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، منشورات كلية الآداب منوبة.
12. *الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ت محمد أبو الفضل. عيسى الحلبي . مكتبة دار التراث القاهرة، 1957.
13. *الزركلي ، الأعلام ، ج 5 ، دار العلم للملايين ، ط8، بيروت، 1989 .
14. *محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار الفكر، ط2، بيروت ، 1998 .
15. *طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ط3 ، الدار البيضاء، 2007
16. *طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، ط 2، الدار البيضاء، 2006
17. *محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي دار الثقافة ، ط1، الدار البيضاء ، 1986.
18. *محمد الولي ، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات، ع8، مجلة فكر و نقد، السنة الأولى، المغرب، أبريل 1998

الملحق: مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شاذب الخارجي واسمه بسطام من بني يشكر فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ولست أولى بذلك مني فهل لي أن أظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرك فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيا اسمه عاصم ورجلا من بني يشكر فقدموا على عمر بخناصرة فأخبر بمكانهما فقال فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما فلما دخلا قال السلام عليك ثم جلسا فقال لهما عمر أخبراني ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا وما نقمتم علينا فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحري العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعرضنا من الناس ومشورة أم ابتزتم أمرهم فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إلي رجل كان قبلي فقمتم ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم فقالا بيننا وبينك أمر إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا وإن منعته فليس منا ولسنا منك فقال عمر وما هو قال رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم وسلكت غير سبيلهم فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق فتكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله لعانا وقال إبراهيم (فمن تبغي فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها فإن قلت إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشهرهم ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون قال أما هم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشراعه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد فقال الخارجي إن رسول الله دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء قال عاصم فأبرأ ممن خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر أخبراني عن أبي بكر وعمر أليسا من أسلافكما وممن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة قال اللهم نعم قال فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسي الذراري قال نعم قال فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر أو تبرؤون أنتم من أحد منهما قال لا قال فأخبراني عن أهل النهروان أليسا من صالح أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة قال بلي قال فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما ولم يخيفوا أمنا ولم يأخذوا مالا قال نعم قال فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم ولقوا عبد الله بن خباب ابن الأرت صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته ثم صبحوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الإقط وهي تفور قال قد كان ذلك قال فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة قال لا قال فهل تبرؤون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال رأيتم الدين واحدا أم اثنين قال لا بل واحدا قال فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني قال لا قال فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى أحدهما صاحبه وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة وتولى بعضهم بعضا وقد اختلفوا في أعظم الأشياء في الدماء والفروج والأموال ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم ويحكم إنكم قوم جهال أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده قال ما نحن كذلك قال عمر بل سوف تقرن بذلك الآن هل تعلمون أن رسول الله بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى خلع الأوثان وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فمن فعل ذلك حقن دمه وأحرز ماله ووجبت حرمة وكانت له أسوة المسلمين قال نعم قال أفليست أنتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فتستحلون دمه وماله وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه فقال الليشكري رأيتم رجلا ولي قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمن أترأه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أو ترأه قد سلم قال عمر لا قال أفستسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال إنما ولاء غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاء حقا فبكي عمر وقال أنظراني ثلاثا فخرجنا من عنده ثم عادا إليه فقال عاصم أشهد أنك على حق فقال عمر للبيشكري ما تقول أنت قال ما أحسن ما وصفت ولكن لا أفئات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم فأما عاصم فأقام عند عمر فأمر له عمر بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشر يوما فكان عمر يقول أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه فاستغفر الله فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد من ولاية العهد فوضعوا على عمر من سقاه سما فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا حتى مرض ومات.